خصوصها، وفى انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد ﷺ ، ويحذر الكافرين: أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه ؟ إن السوابق تدل على أن كُـلاً أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ [1] ﴿١٣﴾ ﴾

فإياكم أن تسوّل [2] لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد ﷺ ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ،فلستم بدعاً عن سابق الخلق.

و﴿ الْقُرُونَ ﴾[3] : جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا

---

(١) المراد بالمجرمين : الكافرون لأنهم كذبوا بآيات الله وظلموا واستكبروا. وجَرُمَ الإنسان: إذا عظم جُرْمه، أي: أذنب. قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] [اللسان : مادة (جرم)].

(٢) تسوّل لهم أنفسهم شيئاً : تُزيِّن لهم الخطأ . والتسويل: تحسين الباطل وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله. قال تعالى: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] ، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد]. [اللسان: مادة (سول)].

(٣) القَرْن: الأمة تأتي بعد الأمة. والقرن: أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم. يقال: القرن من الزمان مائة سنة ، وقيل غير ذلك، والجمع: القرون. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام]. وقال ﷺ : «خيركم قرني (يعني : أصحابي) ثم الذين يلونهم» ، يعني : الذين أخذوا عن التابعين.

فى شىء نسميهم «قرنا» . وقد يكون القرن فى الزمنية ، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة ، والبشر الذين يجتمعون فى مائة سنة يسمونهم قرناً.

أو القرن جماعة يقترنون فى شىء يجمعهم ، مهما طال بهم الأمد [1].

وقوله الحق: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فهل لو أمهلهم الله - تعالى - كانوا سيؤمنون ؟ لا ، فلله علمٌ أزلىٌّ ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً.

والمثل من حياتنا وأعرافنا - ولله المثل الأعلى - نجد الإنسان حين يريد بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مقدرته ؛ الفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين ؛ فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط الحال ؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمِّم له بناء على قدر سعته ، وإن كان الإنسان ثرياً ؛ فهو يستدعى المهندس الذى يبنى له بيتاً حسب إمكانات ورغبات هذا الثرى ، ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ، وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات.

والعالم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتى واقع الكون على وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر ، فالله سبحانه يعلمه.

وقد صحَّ أن القلم جفَّ حتى فى الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم ما تجرى به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما فى

(١) الأمد: الغاية. والأمد: منتهى الأجل. قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .. (١٦)﴾ [الحديد]. [اللسان: مادة (أمد)].

الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً [(١)] ، فصمم المسألة على وفق ما علم.

وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يُلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه - أزلاً - وسبق فى علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره . والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحدٌ حقَّ الإله الأعلى فى أن يكون إلهاً واحداً ، وأن ينقل ذلك لغيره . تلك هى قمة الظلم ؛ لذلك قال سبحانه:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ⟨١٣⟩﴾ [لقمان]

وهم قد ظلموا فى قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا فى الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⟨٤٤⟩﴾ [يونس]

والواحد منهم ظالم ومظلوم فى آن واحد ؛ لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطرى ، وملكة النفع العاجل الذاتى . فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل ؛ تخرج النفس اللوَّامة [(٢)] ؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت نفس تأمر بالسوء فهى تطلب تحقيق

(١) الغيب : ما غاب عن العيون وإن كان محصّلاً فى القلوب . والغيب : ما غاب عنك ولا يغيب عن علاّم الغيوب . قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ⟨٣⟩﴾ [البقرة] . وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ⟨١٨⟩﴾ [الحجرات] . [لسان العرب : مادة (غيب) .. بتصرف] .

(٢) اللوَّامة : صيغة مبالغة من اللائمة . أى : كثيرة اللوم . والنفس اللوامة : هى التى تكثر من لوم صاحبها على أخطائه . قال تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ⟨١⟩ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ⟨٢⟩﴾ [القيامة] .

الشهوات فقط ؛ لأنها نفس أمَّارة [1] بالسوء . أما إن اطمأنت النفس إلى حكم الله تعالى ورضيت به ونفذت ما قاله الله سبحانه، فهى نفس مطمئنة [2] . ومن يظلم نفسه فهو الذى يتبع شهوات [3] نفسه ، وهو قد أعطاها متعة عاجلة ؛ ليستقبل بعد ذلك شقاءً آجلاً [4] ؛ فيكون قد ظلم نفسه .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مُؤيَّدين بالمعجزات ؛ ليبصِّروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون ؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى: أنه سبحانه لو تركهم أحياء فلن يؤمنوا ، فهو الذى خلقهم وقد علم أزلاً أنهم لن يختاروا الإيمان.

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذى يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، فلو كان علمه - سبحانه - على وفق ما يَقْهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية.

والمثال - ولله المثل الأعلى - أنت فى البيت وتريد أن تقوم وزوجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً ؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم: إن طعامكم فى الثلاجة ؛ لحماً وسمكاً وجبناً وزيتوناً . وبعد أن

(١) أمَّارة : صيغة مبالغة من الآمرة . أى: كثيرة الأمر . والنفس الأمارة هى النفس المسيطرة والمتسلِّطة على صاحبها، وقد ورد فى القرآن ذكرها فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف] .

(٢) النفس المطمئنة هى التى اطمأنت بالإيمان ورضيت بربها وأطاعته؛ فهى ثابتة وساكنة بالجزاء الحسن من الله سبحانه . قال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر] [اللسان: مادة (طمن) . . بتصرف] . ذكر العارفون: إن النفوس سبعة: النفس الأمارة ، واللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، والكاملة .

(٣) اشتهى الشيء شهوةً : أحبَّه ورغب فيه . والجمع : شهوات . قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٤) الآجل: نقيض العاجل. والآجلة: الآخرة، والعاجلة: الدنيا. وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] . والأجل المسمى: يوم القيامة. [اللسان: مادة (أجل) . . بتصرف] .

تخرج أنت وزوجتك تقول لها : إن أبناءنا لن يأكلوا إلا جبناً وزيتوناً ؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن فى الثلاجة إلا الجبن ، لما قلت ذلك ؛ لأن هذا هو لون الطعام القهرى .

لكن ما دام فى الأمر اختيار ؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء . وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت لهم الاختيار . ومثال هذا فى القرآن قوله الحق :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ . [المسد]

وفى هذا حكم من الله تعالى بأن أبا لهب [1] سيموت كافراً ، وهذا حكم مُعْلَن ويُردَّد فى الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله ﷺ ، وكان كافراً مثل غيره من الكفار . وقد آمن من الكفار الكثير . ألم يسلم عمر ؟ ألم يسلم عكرمة بن أبى جهل ؟ ألم يسلم عمرو بن العاص ؟ ألم يسلم خالد بن الوليد ؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر ؟ لا ، لم يسلم وعلم رسول الله ﷺ من ربه أن ذلك لن يكون منه . وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن ؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبى لهب .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب .

وسبب نزول السورة التى ذكر فيها ، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقال : «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخرها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الذى كان للأمم السابقة التى أهلكت فى القرون الماضية تجزى ممن يحدد كل شيء؛ لأن القضايا فى الكون واحدة. فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهى الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿خَلَائِفَ﴾: جمع خليفة [1]، وهو من يَخْلُف غيره. والحق سبحانه وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى قادر، وسميع، وعليم، وله كل صفات الكمال المطلق، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعَدِّى أثر قدرتك إلى غيرك، ولكنك لن تستطيع أن تُعدِّى قدرتك إلى سواك، فإن كنت قوياً؛ فلن تستطيع أن تَهَبَ ضعيفاً قدراً من قوتك. بل كل الذى تستطيعه هو أن تهبه أثر قدرتك، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً؛ فأنت قد تحمله عنه، وإن كان غير قادر على المشى؛ فأنت تأخذ بيده، لكنك لا تستطيع أن تهبه جزءاً من قوتك الذاتية، فيظل هو عاجزاً، وتظل أنت قادراً - كما أنت.

هذا هو حال الخلق: تجد غنياً وآخر فقيراً، ويُعطى الغنى للفقير من غناه، ويُعطى العالمُ للجاهل بعضَ العلم، لكنه لا يهبه مَلَكَةَ العلم؛ ليعلم.

---

(١) وقد تجمع خليفة على خلفاء، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف].

أما الحق الأعلى سبحانه فهو وحده القادر على أن يهب من قدرته المطلقة للخلق قدرة موهوبة محدودة ، وقد أعطاهم سبحانه أثر القدرة العالية فى الأفلاك التى صنعها ولا دخل للإنسان فيها ؛ من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ورياح ، ومطر .

وأعطى الحق سبحانه للإنسان طاقة من قدرته فى الأمور التى حوله ؛ فأصبح قادراً على أن يفعل بعض الأفعال التى تتناسب مع هذه الطاقة الموهوبة . وبذلك عدَّى له الحق سبحانه من قدرته ؛ ليقدر على الفعل ، ومن غناه ؛ ليعطى الفقير ، ومن علمه ؛ ليعطى الجاهل ، ومن حلمه ؛ ليحْلِم على الذى يؤذيه .

إذن : فالخلق لا يعدّون [1] صفاتهم إلى غيرهم ولكنهم يعدون آثار صفاتهم إلى غيرهم ، وتظل الصفة هنا قوة ، والصفة هناك ضعفاً . أما الواحد الأحد فهو الذى يستطيع أن يهب من قدرته للعاجز قدرة ؛ فيفعل . فهل كل الكون هكذا ؟

إن الكون قسمان : قسم وهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان بدون مجال له فيه . وقد أقامه الحق بقدرته ، وهذا القسم من الكون مستقيم فى أمره استقامة لا يتأتّى لها أى خَلَل ، مثل : نظام الأفلاك والسماء ودوران الشمس والقمر والريح وغيرها ، ولا تعانى من أى عطب [2] أو خلل ، ولا يتأتى لهذا القسم فساد إلا بتدخُّل الإنسان .

(١) أعديته فعدا ، وعدوته أعدوه : تجاوزته إلى غيره ، واستعديت الأمير على الظالم طلبت منه النصرة ، فأعدانى عليه : أعانى ونصرنى فالاستعداد طلب التقوية والنصرة - المصباح المنير صـ ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) العَطَب : الهلاك ، يكون فى الناس وفى غيرهم . وفى الحديث الشريف : ذكْرُ عَطَب الهَدْى ، وهو هلاكه ، وقد يُعبَّر به عن آفة تعتريه ، تمنعه من السير ، فيُنْحَر . والمراد بالعطب هنا : الفساد أو العيب أو الخطأ . [اللسان : مادة (عطب) . . بتصرف] . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ . . ③ ﴾ [الملك] .

وقسم آخر فى الكون تركه الحق سبحانه للإنسان ؛ حتى يقيمه بالقوة الموهوبة له من الله .

وأنت لا تجد فساداً فى كون الله تعالى إلا وجدت فيه للإنسان يداً ، أما الأمور التى ليس للإنسان فيها يد فهى مستقيمة، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) ﴾ [الرحمن]

والمراصد تحدِّد موقع الأرض بين الشمس والقمر ، وموقع القمر بين الأرض والشمس بدقة تتناسب مع قوله الحق: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ ؛ لأن الإنسان ليس له دخل فى هذه الأمور.

وفيما لنا فيه اختيار علينا أن نتدخل بمنهج الله تعالى ؛ لتستقيم حركتنا مثل استقامة الحركة فى الأكوان العليا التى لا دخل لنا فيها.

إذن: فالذى يُفْسد الأكوان هو تدخُّل الإنسان - فيما يحيط به ، وفيما ينفعل له وينفعل به - على غير منهج الله؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[2] (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

---

(١) الحسبان: الحساب. والشمس والقمر بحسبان أي: بحساب ومنازل حددّها الله سبحانه فلا يعدوانها. وقال الزجاج: «بحسبان» يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات. وقال أبو العباس: حسبان مصدر حَسَبَ يحسُبُه حساباً وحسباناً. وقال الأخفش وأبو الهيثم: الحسبان جمع حساب. قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. (٩٦)﴾ [الأنعام]. [اللسان: مادة (حسب) .. بتصرف].

(٢) البيان: ما بُيِّنَ به الشيء من الدلالة وغيرها. وبان الشيء بياناً: اتّضَح، فهو بيِّنٌ. وكذلك أبان الشيء إبانة فهو مبين. والبيان: الفصاحة والإفصاح مع ذكاء، والبيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ. قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة] [اللسان: مادة (بين) .. بتصرف].

أى: هذه الأكوان مخلوقة بحساب ، وتستطيعون أن تُقَدِّروا أوقاتكم وحساباتكم على أساسها . ويقول سبحانه:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ[1] وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن]

وحتى تستقيم لكم الأمور الدنيا فى حركتكم فى الكون - كما استقامت لكم الأمور العليا ؛ وازنوا كل الأمور بالعدل ؛ فلا يختل لكم ميزان ؛ لأن الذى يُفسد الكون أنكم تتدخلون فيما أعطى لكم من مواهب الله قدرة وعلماً وحَركة على غير منهج الله . فادخلوا على أمور حياتكم بمنهج الله فى «افعل» و«لا تفعل»[2] ؛ ليستقيم لكم الكون الأدنى كما استقام لكم الكون الأعلى.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقد خلف الإنسانُ اللهَ تعالى فى الأرض ، فى أنه - مثلاً - يحرث الأرض ويسقيها ؛ فيخرج له الزرع ، وحين يأخذ الإنسان أسباب الله فهو ينال نتيجة الأخذ بالأسباب . ولكن آفة الإنسان بغروره ، حين تستجيب له الأشياء ، فهو يظن أنه قادر بذاته ، لا بأسباب الله .

والحق سبحانه وتعالى يُعطى بعطاء ربوبيته للمؤمن ، وللكافر ؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، لكنه جلّ وعلا ميَّز المؤمن ، لا بعطاء الأسباب فقط ، ولكن بالمنهج ، والتكليف المتمثل فى

---

(١) نَجَمَ الشىء: طلع وظهر. ويقال لكل ما طلع وبدا: نَجْمٌ. ولذلك اختلف المفسرون فى تفسير النجم فى الآية، فقال ابن عباس: النجم ما انبسط على وجه الأرض (يعنى: من النبات). وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. انظر لسان العرب - مادة (نجم) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠).

(٢) افعل ولا تفعل عليهما مدار التكاليف الشرعية من: الفرض ، والواجب ، والمندوب ، والمستحب والحرام ، والمكروه ، والمباح.

«افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، فإن أخذ العطاءين من الله يبقَ له حسن الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وإن أخذ العطاء الثانى فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهو يأخذ الآخرة ، أما دنياه فتظل متخلّفة.

ومن يُردْ أن يأخذ حُسْن الدنيا والآخرة ، فليأخذ عطاء ربوبية الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وعطاء الألوهية باتّباع المنهج.

إلا أن آفة الخليفة فى الأرض أنه يرى بعض الأمور مستجيبة له ؛ فيطغى [(١)] ، ويظن أنه أصيل فى الكون . ونقول له: ما دمت تظن أنك أصيل فى الكون فحافظ على روحك ، وعلى قوتك ، وعلى غناك . وأنت لن تستطيع ذلك . فأنت إنْ تمردت على أوامر الله بالكفر - مثلاً ، فلماذا لا تتمرد على المرض أو الموت ؟

إذن: أنت مقهور للأعلى غصباً عنك ، ويجب أن تأخذ من الأمور التى تنزل عليك بالأقدار ؛ لتلجمك ، وتقهرك ، إلى أن تأخذ الأمور التى لك فيها اختيار بمنهج الله سبحانه.

ولو ظن الخليفة فى الأرض أنه أصيل فى الكون ، فعليه أن يتعلّم مما يراه فى الكون ، فأنت قد توكّل محامياً فى العقود والتصرفات ؛ فيتصرف فى الأمور كلها دون الرجوع إليك ولا يعرض عليك بياناً بما فعل ، فتقوم أنت بإلغاء التوكيل . فيلتفت مثل هذا المحامى إلى أن كل تصرف له دون التوكيل قد صار غير مقبول . فماذا عن توكيل الله للإنسان بالخلافة ؟ يقول الحق سبحانه:

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] ومثال هذا : صاحب الجنتين اللتين قال عنهما رب العزة : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) ﴾ [الكهف] ولكنه طغى بنعمة الله فقال : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف] .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ فإذا كنتم قد خلفتم من هلكوا ، فمن اللازم أن تأخذوا العظة والعبرة فى أن الله تعالى غالب على أمره [1] ، ولا ترهقوا الرسل ، بل تأخذوا المنهج ، أو على الأقل ، لا تعارضوهم إن لم تؤمنوا بالمنهج الذى جاءوا به من الله . واتركوهم يعلنون كلمة الله ، وليعيدوا صياغة حركة المؤمنين برسالاتهم فى هذا الكون على وفق ما يريده الله سبحانه ، وأنتم أحرار فى أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا .

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

والدليل على ذلك أن الإسلام حينما فتح كثيراً من البلاد ترك لهم حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على أديانهم ، مع أنه قد دخل بلادهم بالدعوة أو الغلبة ، ولكنه لم يقهر أحداً على الدين ، وأخذ المسلمون منهم الجزية [2] مقابل حماية المسلمين لهم .

ولو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما أبقى أحداً على دينه ، ولكن الإسلام لم يُكْرِه أحداً ، وحمى حرية الاختيار بالسيف . ولأن الذين لم يؤمنوا بالإسلام عاشوا فى مجتمع تتكفّل الدولة الإسلامية فيه بكل متطلبات حياتهم ، والمسلم يدفع زكاة لبيت المال ، فعلى من لم يؤمن- وينتفع بالخدمات التى يقدمها المجتمع المسلم-أن يدفع الجزية مقابل تلك الخدمات .

(١) لقد حثَّ الله سبحانه الناس على النظر فى عاقبة السابقين وما حدث لهم فى أزمانهم ، وذلك فى آيات كثيرة من القرآن ، منها : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾ [آل عمران] . و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩)﴾ [يوسف] . والله سبحانه قد حسم مسألة الصراع بين الحق والباطل فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ [يوسف] .

(٢) الجزية : هى مبلغ من المال يوضع على من دخل فى ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، فرضها الإسلام عليهم فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها ، وهى تجب على من كان : ذكراً ، مكلفاً ، حراً . ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب . انظر : فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧) .

وإذا اعتقد الإنسان أنه خليفة ، وظل متذكراً لذلك ، فهو يتذكر أن سطوة من استخلفه قادرة على أن تمنع عنه هذه الخلافة .

إذن : فخذوا الأمر بالتسليم ، وساعدوا النبى ﷺ على دعوته ، وآمنوا به أولاً ، وإن لم تؤمنوا به فاتركوه ؛ ليعلن دعوته ، ولا تعاندوه ، ولا تصرفوا الناس عنه ؛ لأن الحق هو القائل : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ⑭﴾ [يونس]

وساعة تأتى لأمر يعلله الله بكلمة ﴿لِيَعْلَمَ .. ⑨④﴾ [المائدة]

أو ﴿لِنَنظُرَ ... ⑭﴾ [يونس]

فاعلم أن الله عالم وعليم ، علم كل الأمور قبل أن توجد ، وعلم الأشياء التى للناس فيها اختيار ، وهو القائل :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ [1] لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ②⑤﴾ [الحديد]

وقد علم الحق سبحانه أزلاً كل شىء ، وإذا قال الله : ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ فليس معنى ذلك أن هناك علماً جديداً لم يكن يعلمه سوف ينشأ له ، لكنه يعلم علم مشهد وإقرار منك ؛ حتى لا يقول قائل : لماذا يحاسبنا الله على ما عَلِمَ أزلاً ؟ بل يأتى الله سبحانه بالاختبار الذى يحدِّد للعبد المعايير التى تتيح للمؤمن أن يدخل الجنة ، وللعاصى أن يُحاسَب ويُجازَى .

---

(١) الميزان : العدل ، والميزان : المقدار . والميزان : الآلة التى توزن بها الأشياء ، وجمعه : موازين . قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. ①⑦﴾ [الشورى] . وقال : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .. ④⑦﴾ [الأنبياء] . [اللسان : مادة (وزن) . . بتصرف] .

راجع أصله وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ / محمد السنراوى المستشار بالأزهر . والأستاذ / عادل أبو المعاطى .

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد عِلم الواقع ، لا عِلم الحصول.

إذن: فذكر كلمة ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ وكلمة ﴿لِنَنظُرَ﴾ في القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهد ، وعلم حُجّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهي: رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسل ، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتي بالحديد[1] الذي يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذي لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعِلم الله سبحانه هنا علم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خبراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفي هذا لون من الاحتياط الجميل.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوي وعزيز . فهو القائل:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

---

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أي : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للدمار ؛ إذا وضع في يد من لا ضمير له ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم.

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ إنما يعني : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرة منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّت عدَّتُهم ، وقلّ عددهم.

إذن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ .. (١٤) ﴾ [يونس]

أي : نظر واقع ، لا نظر علم.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا(١) بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ(٢) نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهي العجائب التي في الكون ويسميها الله سبحانه آيات ، فالآية هي عجيبة من العجائب ، سواء

(١) الآية : العبرة ، والآية : المعجزة أو الشيء العجيب . والجمع : آيات ، وآي . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] ، والآيات هنا : الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقيوميته . [لسان العرب : مادة (أيا) . . بتصرف].

(٢) التِّلقاء : مصدر لَقِيَ . يقال : يسرني تلقاؤك أي : لقاؤك . ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة .

فى الذكاء أو الجمال أو الخُلُق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هى الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شىء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلما يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كألا يمكّنهم الحق - عزّ وجلّ - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيّهم [1] ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الغَيّ : الضلال . غَوَى غَيّاً وغَوَايةً : أمعن فى الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وتَغَاوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستغواه بالأمانىّ الكاذبة : طلب غيّه وأضلّه . وقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) .. بتصرف] .

وهكذا تتجلّى أمامهم خيبتهم.

إذن: الآيات تُطلَق على الآيات الكونية، وتطلق على الآيات المعجزات، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله، وخلق الكون من الله، فهل هناك آية تصادم آية؟ لا؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات، والحق سبحانه هو القائل:

﴿.. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

وقوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ..(١٥)﴾ [يونس]

أى: آيات واضحة. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾

وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة. ومقابل الرجاء شيء آخر محبوب، لكن الإنسان يعلم استحالته، وهو التمنّي، فالمحبوبات - إذن - قسمان: أمور مُتمنَّاة وهى فى الأمور المستحيلة، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها، والقسم الثانى أمور نحبها، ومن الممكن أن تقع، وتسمى رجاء.

﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ هم مَن لا يؤمنون، لا بإله، ولا ببعث؛ فقد قالوا:

﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ[1] (٢٤)﴾ [الجاثية]

---

(١) الدَّهر: الزمان الطويل، ومدّة الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان]. وقال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» ومعناه: أن ما أصابك من الدهر، فالله فاعله وليس الدهر، فإذا شتمت الدهر، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون. [لسان العرب: مادة (دهر) - بتصرف].

وقالوا:

﴿أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون .. (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب[1] بقيعة[2] يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ..(٣٩)﴾ [النور]

السراب: هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد. وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء:

﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده .. (٣٩)﴾ [النور]

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول:

---

(١) السَّراب: ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض. وهو من خداع البصر. وقد سُمّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى: يجرى جرياً ، أى: يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء.

(٢) القيعة: أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر. قال الفرّاء: القيعة جمع القاع ، والقاع: ما انبسط من الأرض. قال تعالى: ﴿فيذرها قاعا صفصفا (١٠٦)﴾ [طه]. [اللسان: مادة (قوع). بتصرف].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ [١] أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ⁽١٠⁾ ﴾ [السجدة]

رغم أن الكون الذى نراه يُحتِّم قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شىء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيَّتها ، ويضيع منها اللون ،ثم تصير تراباً. وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التى تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك.

إذن: فللوردة دورة حياة. وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هى بعينها ؛ لم تَزِدْ ولم تنقص. وقد شرحنا ذلك من قبل. وكل شىء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً.

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه [٢] ؛ لأن النظر فى الكون وتأمُّل أحواله يُوجِب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود.

وسبحانه القائل:

---

(١) ضللنا فى الأرض: قال أبو منصور: الأصل فى كلام العرب أن يقال: أضللت الشىء إذا غيَّبته ، وأضللت الميت: دفنته. فالضلال من معانيه: الفساد والعصيان ونقيض الهداية والرشاد. ومن معانيه: التغييب والدفن. فكأنهم يقولون: «إذا دُفنَّا وغُيِّبْنَا تحت الأرض.. فهل نحيا من جديد؟» فيردّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ⁽٢٧⁾ ﴾ [الروم]. [لسان العرب: مادة (ضلل) - بتصرف].

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ⁽١٠٥⁾ ﴾ [يوسف] ويقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ⁽٣٢⁾ ﴾ [الأنبياء].

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ[1] نُعِيدُهُ .. (١٠٤)﴾ [الأنبياء]

وهؤلاء الذين لا يرجـون لقـاء الله يأتى القـرآن بما جـاء على ألسنتهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ..(١٥)﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان.

﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل. والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير[2] .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾.

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن آتى بقرآن غير هذا أو أبدله» ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل. ولكن التبديل هو الأمر السهل. وقد نفى

---

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم.

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٤٥) لهذه الآية. قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه:
أحدها: أنهم سألوه أن يحوّل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً. قاله ابن جرير الطبرى.
الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم. قاله ابن عيسى.
الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. قاله الزجاج.

الأسهل ؛ ليسلِّموا أن طلب الأصعب منفى بطبيعته.

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾

أى: أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ [١]. بل بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً.

إذن: فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ [٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١)﴾ [النحل]

وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ و﴿تِلْقَاءِ﴾ من «القاء» ؛ فتقول: «القيت فلاناً» ، ويأتى المصدر من جنس الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا: الجهة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ [٣] .. (٢٢)﴾ [القصص]

---

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأماته.

(٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الحرج هو من مقاصد الشريعة ، يقول سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع:

١ - ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة: كان فيما أنزل «عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات».

٢ - ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً فى القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضى.

٣ - وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية. انظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٥٩ - ٧٧).

(٣) مَدْيَن: اسم قرية شعيب - عليه السلام.

و﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: جهة مدين. و«التلقاء» قد تأتي بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أي : أنا وفلان التقينا في مكان واحد ، وحين نتوجّه إلى مكان معيّن فنحن نُوجَد فيه. ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتي لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول: لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ[1] الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال: «أخذ فلان شطر ماله» ، أي: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أي: إلى جهة كذا.

وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف في أي مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهي بالأفق.

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهي حين يُخيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذي يخصُّك ، فإن كان بصرُك قوياً فأفقك يتَّسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق.

ويقال: «فلان ضيِّق الأفق» أي: أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف في مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مَرَاء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئي ، وخلفك نصف الكون المرئي الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة».

---

(١) شَطْر الشيء: ناحيته ، وشَطْر كل شيء: نحوه وقصده ، وقصدتُ شَطْرَهُ أي: ناحيته. «وشَطْرَ المسجد الحرام»: نحوه وتلقاءه. قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة].
وشَطْرُ الشيء: نصفُه ، والجمع: أشْطُر ، وشُطُور. وشَطَرْتُه: جعلته نصفين. وشاطره ماله: ناصفَه.
وفي الحديث: أن سعداً استأذن النبي ﷺ أن يتصدّق بماله كله ، قال: «لا» قال: فالشُّطْر ، قال: «لا» ، قال: الثلث ، فقال. «الثلث ، والثلث كثير». وفي الحديث: «الطُّهور شَطْر الإيمان» أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطُّهور يظهر بحاشية الظاهر. [لسان العرب : مادة «شَطَرَ» - بتصرف].

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ﴾ .

أى: أنه ﷺ لا يأتى بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أى: أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده ، ففى هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً. وبعد أن نزل الوحى عليه من الله جاء القرآن فى منتهى البلاغة.

وقد نزل الوحى ورسول الله ﷺ فى الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجَّل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبى ﷺ قد أجَّل عبقريته إلى هذه السِّن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر.

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتَّبِع إلا ما يُوحَى إليه فيقول:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالرَّدِّ من الحق سبحانه على الكافرين:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

وهنا يبلِّغ محمدٌ ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله: لقد عشت طوال عمرى معكم، ولم تكن لى قوة بلاغة أو قوة شعر، أو قوة أدب. فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين، ورأيتم أنه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم، بل عندما اتهمتموه وقلتم:

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل فى القرآن قوله تعالى:

﴿لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ (١) إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ (٢) وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

ولم يخرج النبى ﷺ من شبه الجزيرة العربية، ولم يقرأ مؤلَّفات أحد. فمن أين جاء القرآن إذن؟

لقد جاء من الله سبحانه، وعليكم أن تعقلوا ذلك، ولا داعى للاتهام بأن القرآن من عند محمد؛ لأنكم لم تجرِّبوه خطيباً أو شاعراً، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ، بعد أن نزلت عليه الرسالة، هو بلاغ من عندالله.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسَب الكمال إلى إنسان فينفيه، فالعادة أن

---

(١) لَحَدَ فى الدين وأَلْحَدَ والْتحد: مال عنه، وحَادَ، وابتعد. والإلحاد: الجدال والمراء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ..(٤٠)﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ..(١٨٠)﴾ [الأعراف]. والإلحاد: الظلم والجور. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ..(٢٥)﴾ [الحج]. والإلحاد فى اللغة: الميل عن القصد. وقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل] وأصل الإلحاد: الميل والعُدُول عن الشيء. والملتحَد: الملجأ؛ لأن اللاجيء يميل إليه. [لسان العرب: مادة (لحد) - بتصرف].

(٢) عجم: العُجْم والعَجَم: خلاف العُرْب والعَرَب. ورجل عَجَمِىٌّ وأعجمىٌّ: غير عربىٍّ. قال أبو إسحاق: الأعجم: الذى لا يُفصح ولا يُبيِّن كلامه وإن كان عربياً. والعجمى هو الذى من جنس العجم أفصح أو لم يُفصح. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ [الشعراء].

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن ينتحل[1] كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلِّغكم أن كمال القرآن ليس من عنده، بل هو مجرد مبلِّغ له ، وكان يجب أن يتعقَّلوا تلك القضية بمقدِّماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان[2] ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً[3] .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم[4] ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران]

أي : أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : من أمة العرب ، لا من أمة العَجَم ، أو ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : من قبيلتهم التي يكذِّب أصحابُها رسولَ الله ﷺ .

إذن : فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يَغِبْ عنكم فترة ؛ لتقولوا

---

(١) ينتحل الشيء : ينسبه إلى نفسه . نحله القول : نسبه إليه . ونُحِل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قيل غيره . [لسان العرب : مادة نحل] .

(٢) العنان : عنان اللِّجام : السَّيْر الذي تُمسك به الدابة ، والجمع : أعنَّة . والعنان : الحبْل . والمراد هنا : تشبيه الأفكار بالبعير الذي له عقال أو عنان ؛ إذا أرخيته له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للدَّواب كالعقل للإنسان فإذا فسد العقل ضلّ صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره يضلّ . [لسان العرب : مادة (عنن) - بتصرف] .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت] .

(٤) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة] .

بُعثَ بعثةً ؛ ليتعلَّم علماً من مكان آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم ولا إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتْلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة ؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ فى الأربعينات ، ولكن مخايل العبقرية إنما تنشأ فى نهاية العقد الثانى وأوائل العقد الثالث ، فمن الذى أخَّر العبقرية عند رسول الله ﷺ ليقول هذا القول البليغ الذى أعجزكم ، وأنتم أمّة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون [1] عليها من قديم ، وعجزتم أمام ما جاء به محمد ﷺ ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حَلَّ لكم اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندى ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛ لأنه ﷺ يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه . والدليل على أنكم مضطربون فى الحكم أنكم ساعة يقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ، تكذِّبونه ، وتقولون : لا ، بل هو من عندك ، فإذا فَترَ عنه الوحى مرةً قلتم : قلاه [2] ربُّه .

لماذا اقتنعتم بأن له ربّاً يَصِلُه بالوحى ويهجره بلا وحى ؟

أنتم - إذن - أنكرتم حالة الوصل بالوحى ، واعترفتم بالإله الخالق عندما غاب عنه الوحى ، وكان يجب أن تنتبهوا وتعودوا إلى عقولكم ؛ لتحكموا على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر فى كثير من آياته ، يقول سبحانه :

---

(١) المرتاضون : الذين لهم دُربة ، قد ذللت ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة .

(٢) قلاه ربه : أبغضه وتركه . ولذلك قال له ربه : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى] .

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ[١] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[٢] مَرْيَمَ (٤٤) ﴾[آل عمران]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[٣] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ ..(٤٤) ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[٤] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥) ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدِّمات ؛ لتحكموا بأنه صادق فى البلاغ عن الله ؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة فى أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله

---

(١) أقلامهم : سهامهم ، وقيل : أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة . قال الزجاج : الأقلام هنا : القداح . وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم ، على جهة القُرعة ، وإنما قيل للسهم : القلم ؛ لأنه يُقلَم ، أى : يُبْرَى . وكلّ ما قطعت منه شيئاً بعد شىء فقد قَلَمْتَه ، من ذلك القلم الذى يكتب به ، وإنما سُمِّى قلماً ؛ لأنه قُلِم مرة بعد مرة ، ومن هذا قيل : قلَمْتُ أظفارى . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] . [لسان العرب : مادة (قلم) - بتصرف] .

(٢) يكفل : يعول ، والكافل : العائل . قال تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧) ﴾ [آل عمران] .

(٣) الغربىّ : الجبل الغربىّ الذى كَلَّم الله سبحانه نبيَّه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى المقدس (طُوَى) . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٩١ - بتصرف] .

(٤) ثاوياً : مقيماً والثواء : الإقامة ، ثويت بالمكان : أقمت فيه . قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ..(١٥١) ﴾ [آل عمران] . [لسان العرب : مادة (ثوا) - بتصرف] .

سبحانه وتعالى مُنزَّه عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذى ينبّه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل.

وقول الحق سبحانه فى آخر الآية: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يدلنا على أن القضية التى كذّبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدمات المُحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التى يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكّروا وقالوا: محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلّم ، ولم يَغبْ عنا فترة ليتعلّم ، وظل مدة طويلة إلى سنّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جَاءته هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها: من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءته من عندالله ، فكان يجب أن يصدّقوه.

ومهمة العقل دائما مأخوذة من اشتقاقه ، «فالعقل» [1] مأخوذ من «عقال» البعير. وعقال البعير هو الحبل الذى تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوفّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك، إلى أن نحتاجه فى حركة.

إذن: فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم الملكات ؛ لأن كل مَلَكَة لها نزوع إلى شيء ، فالعين لها مَلَكَة أن ترى كل شيء ، فيقول لها العقل: لا داعى أن

---

(١) العقل : النُّهى ، ضد الحمق ، وعقل يعقل فهو عاقل . قال ابن الأنبارى: الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل : العاقل هو الذى يحبس نفسه ويردّها عن هواها . والعقل: التثبُّت فى الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل: لا تسمعى إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك [١] .

إذن: فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح. وكذلك كلمة «الحكْمة» ، مأخوذة من «الحَكَمة» [٢] وهى فى «اللِّجام» الذى يوضع فى فم الفرس؛ حتى لا يجمح ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى تريده.

إذن: شاء الحق سبحانه أن يميِّز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين لملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المُحَسَّة التى تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ [٣] عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أأكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جرَّبتموها ، أفأكذب على الله ؟! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

---

(١) وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء].

(٢) حكَمة اللجام: ما أحاط بحَنَكَى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد. وقيل: الحكمة حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه. [لسان العرب: مادة (حكم)].

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٨٢) وقال: إسناده حسن.

(٣) افترى: اختلق. الفرية: الكذب. و« افترى » تفيد المبالغة فى الكذب.